الأمة الوسط

والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله

تأليف

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

المقدمة

الحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ.. أما بعد:

فإنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ منَ الْقضَايَا الَّتِي تتعلقُ بالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، والأمْر بالمعرُوفِ وَالنَّهْي عنِ المنْكر، تَتَطَلَّبُ الْبَحْثَ والمُنَاقَشَةَ والحوَارَ، منَ المتخصصِينَ، في وَسَائِلِ الإعْلام، وَفِي الجَامِعَاتِ وَدُورِ العلْمِ، ومؤسَّسَاتِ رِعَايَةِ الشَّبَابِ، وتثقيفِهِ، وتوجيهِهِ.

ومن تـلْكَ القَضَايَا المهمَّةِ، والموضُوعَات الكبيرَة مَا نَتَنَاوَله في هَذَا الكتَاب منْ بَيَان وَسطية الأمةِ الإسلاميةِ في المسائِلِ العقديةِ، والقَضَايَا الفقهيةِ والتشريعيةِ، وفي منهاجِ الدعوةِ إِلَى الله، وتوضِيح أهمية الاستقَامة عَلَى تـلكَ الوسطيةِ التي أَرَادَهَا اللهُ لهَذِهِ الأُمَّةِ.

والكتاب كَانَ في الأصل محُاضرة بعنوان: "الأمة الوسط، والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله " ألقيتها في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في الظهران في ١٤١٨/٦/١٧ هـ.

تلكم الجامعة التي قطعت مراحل متقدمة في العلم والمعرفة، وأهَّلت أعدادًا كبيرة من أبناء وطننا الغالي، المملكة العربية السعودية، وثلة من أبناء الدول العربية والإسلامية.

لَقَدْ أَسْهَمَ خِرِّيجُو هَذِهِ الجَامِعَةِ المُبَارَكَةِ منْ أَبْنَاءِ المُمْلَكَةِ، فِي تَنْمِيَةِ بِلَادِهِمْ، وتقدمها علميًا وحضاريًا، دون أن يفرطوا فيما يوجبه عليهم دينهم.

وذلك انسـجامًا مع ما تسير عليه المملكة العربية السعودية،تخطيطًا وتنفيذًا، من التوازن والاعتدال، والتمسك بالثوابـت الإسلامية والوطنية، والأخذ بما يجدُّ من العلم والمعرفة، مما تستدعيه نهضة المملكة، وأخذها بأسباب القوة والتقدم؛ لتمثل

في واقعها المجتمع المسلم المهتدي بالإسلام، الذي لا يتصادم مع العلم، ولكنه يوجهه، ويستفيد منه، في تحقيق الخير والنفع، وعبادة الله سبحانه، التي خلق الله من أجلها الجن والإنس: { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ } [1] . (الذاريات الآية ٥٦)

كانت المناسبة فرصة لأثير بعض القضايا التي تحتاج إلى تذكير ومتابعة، مما يهمنا جميعًا أن يكون عليه شباب الأمة الإسلامية جمعاء، وشبابنا في المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص، لما للمملكة من واقع إسلامي متميز، في تكوينها ونشأتها، وتطبيقها للإسلام، وتعاونها مع المسلمين أينما كانوا، نشرًا للدين، ودعوة إلى الاهتداء بهديه.

ولما ينبغي أن يكون عليه شبابها من استقامة واعتدال، وفق منهاج الإسلام؛ لكي يؤدوا ما ينتظرهم من مهمات جسيمة، في خدمة دينهم ووطنهم وأمتهم.

والجامعات، هي محضن الشباب، ومكان إعدادهم وتأهيلهم، لما ينبغي أن يكونوا عليه.

وَجَامِعَاتُنَا فِي الْمُمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ وَنِعْمَةٍ، ثُمَّ بِمَا تُولِيهِ حُكُومَتُنَا الرَّشِيدَةُ مِنِ اهْتِمَامٍ وَعِنَايَةٍ، تَبْذُلُ جُهُودًا كَبِيرَةً فِي رِعَايَةِ أَبْنَائِهَا، وَتَرْبِيَتِهِمُ التَّرْبِيَةَ الصَّالِحَةَ عِلْمِيًّا وَسُلُوكِيًّا وَتَوْجِيهِيًّا.

وَمَادَةُ التَّوْجِيهِ الْأَسَاسِيَةُ فِي جَامِعَاتِ الْمُمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ، هِيَ نُصُوصُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا اسْتَنْبَطَهُ الْعُلَمَاءُ الْمُسْلِمُونَ مِمَّا اسْتندَ إِلَيْهِمَا.

إِنَّ الشَّبَابَ الْمُسْلِمَ فِي كُلِّ شُعُوبِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، هُوَ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْعِبْءُ الْأَكْبَرُ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهَا، فِي إِقَامَةِ الدِّينِ، وَالْقِيَامِ بِالْأَمَانَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تحَمَّلَهَا الْإِنْسَانُ:

(١) سورة الذاريات آية: ٥٦.

{ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ }[1]. (الأحزاب الآية ٧٢). من أجل إقامة الدين وتأدية الأمانة، ينبغي للمسلم أن يعرف المنهاج الأعدل والأكمل في القيام بهذه الأمانة.

والشباب أحوج ما يكون إلى معرفة المنهاج الرباني الذي اختص الله به هذه الأمة، وهو منهاج تفرد به الإسلام دون سواه.

لقد جعل الله هذه الأمة أمةً وسطًا، ومن الضروري أن نتعرف على منهاج الوسطية، وهو منهاج عام للأمة الإسلامية كلها.

والشباب المسلم أحوج ما يكون إلى اتباع هذا المنهاج في فهم أحكام الشريعة، وفي الدعوة إلى الله على أساسه؛ لأن الأمة الإسلامية، هي الشاهدة على غيرها من الأمم يوم القيامة، ولأنها - بما هي عليه من الحق- شاهدةٌ على الخلق في هذه الدنيا، وقادرة على إصلاح نفسها، وإصلاح غيرها بما لديها من هدي الكتاب والسنة.

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الرياض

في ١ / ٧ / ١٤١٨هـ

عبد الله بن عبد المحسن التركي

(١) سورة الأحزاب آية: ٧٢.

الأمة الوسط في القرآن الكريم

يُعَد الوحي الإلهي من الكتاب والسنة أساس التشريع، ومصدر الفكر الإسلامي.

ومنذ نزول القرآن الكريم، وختم الرسالات الإلهية بالإسلام، تمت صياغة فكر المسلمين في أصوله وثوابته على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية.

وهذه الأصول والثوابت، ظلت أهم مرتكزات فكر المسلمين في جميع العصور، على اختلاف الزمـــان والمكـــان، وتنوع البيئات والأعراف والثقافات في البلاد التي ساد فيها الإسلام، منذ القرن الأول الهجري، وما تلاه من انتشار للإسلام في أقطار واسعة، كـــان لبعضها ثقافات مميزة.

وإذا كانت الأمة الإسلامية، قد بدأ بزوغها في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية، وبدت ظاهرة قوية في حجة الوداع، حين خاطب النبي صلوات الله وسلامه عليه عشرات الألوف من المسلمين.

فإن هذه الأمة لم تعد قاصرة على العرب، أو سكان شبه الجزيرة العربية، التي توحدت لأول مرة في تاريخها تحت سلطان المسلمين.

لقد بدأت الأمة الإسلامية بالعرب، سكان شبه الجزيرة، ثم امتدت فيما بعد لتضم إليها شعوبًا أخرى في المشرق والمغرب، لا سيما في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

ومعلوم أن وحدة الأمة الإسلامية، ولزوم جماعة المسلمين، وعدم التفرق من أجلِّ المقاصد الإسلامية، وأسمى الغايات الدينية، قال الله تعالى: { وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ } [1] . (آل عمرن الآية ١٠٣). وقال رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه { إن الله يرضى لكـــم ثلاثًا، ويكره لكـــم ثلاثًا: فيرضى لكـــم أن تعبدوه

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٣.

ولا تُشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيلَ وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال } [١] . (رواه مالك، وأحمد، ومسلم).

قال النووي - رحمه الله: (وأما قوله ﷺ ولا تفرقوا، فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتأليف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام).

وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم } [٢] . (رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، والدارمي).

ولما كانت تلك الوحدة التي تعد من قواعد الإسلام تقتضي توحد الأمة في منهاج التفكير. فقد كان القرآن الكريم، هو الأساس الأولى في صياغة العقل المسلم على المستوى الفردي، وعلى المستوى الجمعي أيضًا، في شعوب تختلف أصولها العرقية، وبيئاتها، وأعرافها، وتراثها الحضاري والثقافي.

وكان انتشار اللغة العربية، وسيادتها في كـــثير من البلاد التي فتحها المسلمون، من أهم العوامل التي ساعدت على توحد منهاج التفكير؛ إذ اللغة وعاء الفكر، ووسيلة التعبير عنه، وطريق انتقاله وذيوعه.

الأمة في القرآن الكريم

ورد لفظ (الأمة) في القرآن الكـــريم مرات عديدة، نحو خمسين مرة:

منها قول الله تعالى:

{ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ } [٣] . (البقرة الآية ١٢٨). وقوله تعالى:

---

(١) مسلم الأقضية (١٧١٥)، أحمد (٣٦٧/٢)، مالك الجامع (١٨٦٣).

(٢) الترمذي العلم (٢٦٥٨).

(٣) سورة البقرة آية: ١٢٨.

{ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ } [1] (البقرة الآيتان ١٣٤، ١٤١). وقوله تعالى:

{ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ } [2] . (البقرة الآية ٢١٣). وقوله تعالى:

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ } [3] . (المائدة الآية ٦٦). وقوله تعالى:

{ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ } [4] . (يوسف الآية ٤٥). وقوله تعالى:

{ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ } [5] . (النحل الآية ١٢٠) وقوله تعالى:

{ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ } [6] . (الزخرف الآية ٢٢). وقوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة آية: ١٣٤.

(٢) سورة البقرة آية: ٢١٣.

(٣) سورة المائدة آية: ٦٦.

(٤) سورة يوسف آية: ٤٥.

(٥) سورة النحل آية: ١٢٠.

(٦) سورة الزخرف آية: ٢٢.

{ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ } [1] . (المؤمنون الآية ٥٢).

وقوله تعالى:

{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ } [2] . (البقرة الآية ١٤٣).

(١) سورة المؤمنون آية: ٥٢.

(٢) سورة البقرة آية: ١٤٣.

معاني الأمة في القرآن الكريم

وكلمة (أمة) في القرآن لها معانٍ عدةٌ: فدعوة إبراهيم وإسماعيل أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، قيل: يعني العرب.

قال ابن كـــثير: (والصواب أنه يعم العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل). وفي قول الله تعالى: { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ } [1] . (البقرة الآية ١٣٤).

الأمة: بمعنى السلف الماضي.

وفي قوله تعالى:

{ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً } [2] . (الشورى الآية ٨). ليس الخطاب هنا لهذه الأمة، بل لجميع الأمم التي أرسل إليها رسلًا بشرائع عدة، حتى اختتمت الشرائع بالشريعة الخاتمة، شريعة الإسلام.

وقوله تعالى:

{ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ } [3] . (النحل الآية ١٢٠). الأمة هنا: بمعنى الإمام الذي يقتدى به، أو الذي يعلِّم الخير.

وقيل: أمة وحده، أي: كان مؤمنًا وحده.

وقوله تعالى:

{ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ } [4] . (يوسف الآية ٤٥) الأمة هنا: بمعنى المدة، أو النسيان. أي: ذكر صاحب يوسف وصيته له بعد مدة، أو بعد نسيان.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٣٤.

(٢) سورة الشورى آية: ٨.

(٣) سورة النحل آية: ١٢٠.

(٤) سورة يوسف آية: ٤٥.

المعنى الغالب لكـــلمة أمة في القرآن الكريم

والمعنى الغالب لكـــلمة (أمة) في القرآن الكريم، هو معنى الجمع من الناس في مكان وزمان معين، وقد تكون بمعنى الجماعة من أي خلق من مخلوقات الله تعالى، كما في قوله ﷻ

{ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ } [1] . (الأنعام الآية ٣٨). أي: أصناف مصنفة.

قال قتادة: الإنس أمة، والجن أمة، والطير أمة.

(١) سورة الأنعام آية: ٣٨.

معاني الأمة في اللغة

وأما في اللغة، فإن لكلمة (أمة) معاني كثيرة، أشهرها وأشيعها أنها بمعنى الجماعة؛ إذ لا يكاد يفهم عند الإطلاق إلا هذا المعنى، قال ابن منظور في اللسان: وأمة الرجل: قومه، والأمة: الجماعة. ولفظ الأمة مفرد، ومعناه الجمع، كما نص عليه الأخفش، فإن أريد جمع لفظه قيل: أمم، قال الله تعالى:

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ } [1].

(الأنعام الآية ٤٢). وقال تعالى:

{ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ } [2].

(الرعد الآية ٣٠).

وهذا المعنى الغالب للكلمة، هو المعنى السائد في تعريف (الأمة) في اللغات الأجنبية، الذي يدل عليه لفظ (NATION) بالإنجليزية، وهو نفس اللفظ في اللغة الفرنسية مع اختلاف النطق.

والأمة أسبق من الدولة التي لم تظهر قبل التاريخ المدون، بينما سبقت الأمم بالظهور.

فالأمة: جماعة كبيرة من الناس، تنتمي إلى أصل عرقي واحد، يوجد بين أفرادها لغة مشتركة، أو تاريخ مشترك ومصالح كبرى، فضلًا عن الوجود الجغرافي والتاريخي، لقرون طويلة في أرض بعينها.

وهي تختلف عن الدولة، التي هي كيان قانوني يشتمل على ثلاثة عناصر، هي: الشعب، والأرض، وسلطة السيادة.

فالأمة: كائن حي عبر العصور. أما الدولة: فهي كيان قانوني اقتضاه الواقع. والدولة قد تضم عدة أمم؛ إذ قد تتوسع دولة، وتضم أقاليم تختلف عنها في الأصل العرقي، أو في

---

(١) سورة الأنعام آية: ٤٢.

(٢) سورة الرعد آية: ٣٠.

اللغة، أو في العقيدة، فتكون تلك الدولة قد ضمت أممًا مختلفة، مثل الإمبراطوريات القديمة في التاريخ، كالإمبراطورية الفارسية، والرومانية، ومثل المد الاستعماري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

فقد كانت الدول الاستعمارية، تضم أجناسًا من أعراق شتى، وعقائد مختلفة، ولغات متعددة، تنتمي لأمم معينة، ولكنها تخضع لسلطة الدولة المستعمِرة، التي تختلف عنها أو عن بعضها عرقيًا ولغويًا وحضارة وتاريخًا.

الوسط في القرآن الكريم

ورد لفظ (الوسط) ومشتقاته في القرآن الكريم في مواضع عدة: منها قول الله تعالى:

{ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ } [1] . (البقرة الآية ٢٣٨).

قيل: إن معنى الوسطى: الفضلى، وسميت بذلك؛ لتوسطها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار.

وقوله تعالى في كفارة اليمين:

{ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيۡمَـٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَـٰنَكُمۡۚ } [2] . (المائدة الآية ٨٩).

وأوسط الطعام هنا: هو الطعام الجيد الذي يأكل منه الإنسان.

وقيل في (الأوسط): ما بين القلة والكثرة. ويظهر من أقوال المفسرين: أن معنى الأجود والأفضل، هو المعنى الغالب.

وقوله تعالى:

{ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ } [3] . (القلم الآية ٢٨). قيل: الأوسط، هو الأعدل، وهو ظاهر لما قاله من طلب التسبيح والنصح بالمعروف. وقيل: أوسطهم عمرًا. والأول هو الأقرب للصواب.

وقوله تعالى:

{ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴿٥﴾ } [1] . (العاديات الآية ٥). الوسط هنا: بمعنى التوسط بين طرفين، وهو المعنى المناسب، والموقع الوسط، هو الأفضل في الغالب.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٨.

(٢) سورة المائدة آية: ٨٩.

(٣) سورة القلم آية: ٢٨.

إن لفظ (الوسط) لغة: هو ما يكون بين طرفين. ويأتي الوسط بمعنى الاعتدال، والبعد عن الغلو. والوسط بطبيعته محمي من العوارض والآفات التي قد تصيب الطرفين. وهذا الوصف نظرًا لأصله، لا يتغير بتغيير موصوفه، يقال: رجل وسط، وأمة وسط. أما ما وصف الله به الأمة الإسلامية في قوله تعالى: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ } [٢] . (البقرة الآية ١٤٣).

فقد ذكر للوسطية في الآية الكريمة ثلاثة معانٍ:

١ - العدالة:

قال ﷺ بعد تلاوته للآية الكريمة: { والوسط: العدل } [٣] . (رواه البخاري في كتاب التفسير).

٢ - الخيار والأجود:

قال ابن كثير - رحمة الله - في تفسير الآية: (والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها).

٣ - الاعتدال والتوسط:

قال ابن جرير رحمه الله: (وأرى أن الله تعالى ذكره، إنما وصفهم بأنهم وسط، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غُلُوٍّ فيه، غُلُوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقِيلِهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصيرٍ فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها، وأما التأويل، فإنه جاء بأن الوسط العدل وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم).

---

(١) سورة العاديات آية: ٥.

(٢) سورة البقرة آية: ١٤٣.

(٣) البخاري أحاديث الأنبياء (٣١٦١)، الترمذي تفسير القرآن (٢٩٦١)، أحمد (٣/٥٨).

ولا تزاحم بين هذه المعاني الثلاثة، فكلها صحيحة، والآية صالحة، وهي متلازمة مترابطة.

فالآية تعني: أن الله جعلهم خيارا عدولا؛ ليشهدوا على الأمم أن رسلهم بلغتهم، ولا يشهد إلا العدل من الناس.

ووسط الشيء، خيره وأعدله.

قال الشاعر يمتدح الرسول ﷺ

يا أوسط الناس طرا في مفاخرهم وأكرم الناس أُمًّا برَّةً وأَبَا

فمعنى الأمة الوسط: أنها خير الأمم، وأعدلها بالشهادة على غيرها من الأمم.

والمعني: أن الأمة الوسط تحميها وسطيتها من الآفات والعوارض التي تلم بالأمم التي تغلو وتجانب الوسطية.

والشهادة على الأمم، ميزة تتمتع بها الأمة الإسلامية، وهي ميزة مرتبطة بسببها، وهي أنها خير الأمم، وأعدلها، وأبعدها عن الغلو الذي يصيب العقول والأفهام، فينحرف بها إلى الفسوق أو الابتداع.

إِنَّ الْوَسَطِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، تَتَمَيَّزُ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي شرُفت بنزول القرآن، وحَفظَها القران بعد ذلك من أن تضمحل أو تتروي، أو تصبح من اللغات القديمة، كاللغة الآرامية، والإغريقية، واللاتينية.

فمعنى الوسطية الواردة في القرآن وصفا للأمة الإسلامية بجعل الله لها كذلك، يرتبط ارتباطا وثيقًا بدلالة اللغة، وباللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن الكريم.

والوسطية، إسلامية، وَلَيْسَتْ عَرَبِيَّةً؛ لأن المقصود بالأمة في قول الله تعالى: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } [1] . (البقرة الآية ١٤٣).

هو الأمة الإسلامية، التي تعتبر الأمة العربية أهم مفرداتها.

(١) سورة البقرة آية: ١٤٣.

المفهوم الفلسفي للوسطية

إن الوسطية هنا، ليست فلسفية، وليست خصيصة عرقية، ولكنها تتبع الإسلام، وهي خصيصة إسلامية، وميزة دينية أيضًا.

فهي ليست وسطية فلسفية، كما هي عند أرسطو الذي تعني الوسطية عنده، تداخل الشيئين؛ لكي يتكون منهما في النهاية شيء آخر ثالث، يلغيهما، ويقف بدلًا منهما.

وقد ظهرت وسطية أرسطو في مباحث الأخلاق.

فالشجاعة مثلًا: حد جديد، مقتضاه إلغاء حدين آخرين: الجبن والتهور، ولكنه غيرهما، وهو فضيلة ووسط بين رذيلتين.

وقد انتُقدت الوسطية الفلسفية في مجال الأخلاق بالذات، بأنها تحاول أن تضع للأخلاق موازين حسابية أو هندسية.

وَهَذَا الْمِقْيَاسُ لا يصحُّ، كَمَا ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ محمود عباس العقاد - رحمه الله - إلا إذا كان مفروضًا على الإنسان أن يختار بين رذيلتين محققتين، فيختار التوسط بينهما.

إِنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْكَرَمِ لا تُعَدُّ فِي كُلِّ حال إسرافًا، والزيادة في الشجاعة لا تعد دائمًا تهورًا.

إذ إن ذلك يتوقف على ظروف عديدة، وبواعث نفسية، ومصالح عامة، بحيث تصبح زيادة الشجاعة، أو المبالغة في الكرم، زيادة في الفضل، دعت إليها ظروف أو بواعث، أو مصالح اجتماعية.

إِنَّ الْمَفْهُومَ الْإِسْلَامِيَّ لِلْوَسَطِيَّةِ، لا يلغي الطَّرَفَيْنِ؛ لِيَتَكَوَّنَ مِنْهُمَا حدٌّ ثَالِثٌ، وَإِنَّمَا يَبْقَى فِيهِ الطَّرَفَانِ مُتَجَاوِرَيْنِ، وَيَحْتَفِظُ كُلُّ طرفٍ بوجُودِه، وذلك مما يتفق مع الطبيعة البشرية، التي ينتقل فيها الإنسان من حال إلى حال، ويختار بين المفترقات أو المتناقضات، بحسب دوافعه النفسية وحاجات الزمان أو المكان وظروفهما.

وَلَعَلَّ مِنْ خَصَائِصِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ، القرآن الكريم، أنها في معنى الوسطية، لا تنحو منحى ماديًا في اعتبار الوسط موقعًا بين طرفين، أو درجة بين الأعلى والأدنى.

بل يظهر في معنى الوسطية اللغوية، أنها الفضل والعدل والأجود، كما يظهر فيها أيضًا بدلالة اللغة، أنها الوسط بين طرفين، وبذلك يكون اللفظ جامعًا لمعان عديدة، مما يسهم في فهم شامل لمعنى الوسطية الإسلامية، وفي بيان مجالات تطبيقها، بحيث تصبح الأمة الوسط في الآية الكريمة: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ } [1] . (البقرة الآية ١٤٣). هي أمة الخير، والعدل، والشهادة، والتوسط بين الأمور.

(١) سورة البقرة آية: ١٤٣.

خيرية هذه الأمة

وثمة حقيقة ينبغي الالتفات إليها، وهي أن أي أمة من الأمم السابقة، لـــم توصف بأنها الأمة الوسط؛ لأن تلك الصفة إنما تتفق وتتمشى مع خيرية هذه الأمة، التي جاءت وصفًا آخر لها في قول الله تعالى: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [1] . (آل عمران الآية ١١٠).

وخيرية هذه الأمة من وجوه عدة:

١- أمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر، وإيمانها بالله، كما في الآية الكريمة السابقة.

٢- كونها أكثر الأمم نفعًا للناس، كما فسر أبو هريرة ﷺ الآية الكريمة بقوله: { خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام } [2] .

٣- كونها أكثر الناس استجابة للأنبياء، قال ﷺ { أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدَّق نبي من الأنبياء، ما صُدقت، وإن من الأنبياء نبيًا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد } [3] . (رواه مسلم).

٤- كونها لا تجتمع على ضلالة.

٥- كون كتابها خير الكتب السماوية، ونبيها أفضل الأنبياء، وتقديمها على الأم في الحشر، كما في الحديث عن رسول الله ﷺ { نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة } [4] . (متفق عليه).

٦- كونها أكثر أهل الجنة، كما قال ﷺ { إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة } [1] .

---

(١) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٢) البخاري تفسير القرآن (٤٢٨١)، أبو داود الجهاد (٢٦٧٧)، أحمد (٤٠٦/٢).

(٣) مسلم الإيمان (١٩٦)،أحمد (١٤٠/٣)، الدارمي المقدمة (٥١).

(٤) البخاري الجمعة (٨٣٦)، مسلم الجمعة (٨٥٥)، النسائي الجمعة (١٣٦٨)، أحمد (٣٤٢/٢).

(رواه مسلم).

لقد كان الهدف من بسط القول في لفظ (الأمة)، ولـــفظ (الوسط)، أن يتبين المعنى، وينجلي المقصود من اللفظين في لغة القرآن الكريم.

فالأمة لا تقتصر على جماعة من الناس أو المخلوقات، كالطير مثلًا، وإنما يشير اللفظ إلى التفرد بخصائص وميزات.

وهكذا لفظ (الوسط) الذي يكاد ينحصر معناه، في غير لغة القرآن الكريم، في أنه موقع بين طرفين، أو درجة بين الأعلى والأدنى، فإنه يمتد في لغة القرآن الكريم إلى معنى الفضل والخير والعدل، فيصل إلى الدرجة الأعلى في الكمال أو الاكتمال.

وبذلك يتوافق معنى الوسطية في قول الله تعالى: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } [٢] . (البقرة الآية ١٤٣).

مع معنى الخيرية في قوله تعالى: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [٣] . (آل عمران الآية ١١٠).

(١) البخاري الرقاق (٦١٦٣)، مسلم الإيمان (٢٢١)، الترمذي صفة الجنة (٢٥٤٧)، ابن ماجه الزهد (٤٢٨٣)، أحمد (٤٤٥/١).

(٢) سورة البقرة آية: ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران آية: ١١٠.

الوسطية في المنهاج الإسلامي إجمالا

جاء وصف الأمة الإسلامية بالأمة الوسط، في قول الله تعالى:

{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ } [1].

(البقرة الآية ١٤٣).

وفي الحديث الشريف، أن الرسول ﷺ قال: { يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمّته، قال: فذلك قوله: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا } [2]. قال: والوسط: العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم } .

(رواه البخاري).

وفي تفسير ابن كثير عند تفسير الآية:

(أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، هو اختبار للأمة وامتحان لها، ليعلم من يتبعُ عن يقين وإيمان، ومن ينقلب على عقبيه؛ لتكون خير الأمم شهيدةً على الأمم كلها، ولما جعل الله الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، فالوسط هو العدل).

تبدو وسطية الإسلام واضحة وظاهرة، في منهاجه الأعدل والأقوم.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٤٣.

(٢) سورة البقرة آية: ١٤٣.

فالمنهاج الإسلامي القائم على الإيمان بالله، ووحدانيته، وتنزيهه، وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، هو وحده الذي يضمن للبشر أن يتخلصوا من عبادة غير الله عز وجل.

فهو المنهاج الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، فلم تتخذ الأمة الإسلامية، السائرة على صراط الله المستقيم، أندادًا لله سبحانه، ولم يصفوا الله بأوصاف لا تليق به، كما فعلت اليهود، حين وصفوه بالفقر، وأن يده مغلولة.

ولم تضل كما ضلت النصارى، الذين شبهوا المخلوق بالخالق، وأضفوا على عيسى - عليه السلام- خصائص الألوهية، فغلت فيه، وجعلته شريكًا لله.

إن منهاج الأمة الإسلامية، هو المنهاج الوسط المعتدل في أنبياء الله ورسله، حيث آمنوا بهم جميعًا، ولم يفرقوا بين أحد منهم، أو ينقصوه، أو يقتلوا أنبياء الله، كما فعلت اليهود: { لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ } [1] (المائدة الآية ٧٠).

ولم يغلوا في أحد منهم، كما فعلت النصارى مع عيسى ابن مريم - عليه السلام- وإنما قدَّروهم حق قدرهم.

قال ﷺ { لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله } [2] . (رواه البخاري).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى: (فالمسلمون وسط في أنبياء الله وعباده الصالحين، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله... ولا جَفَوْا عنهم كما جفت اليهود، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق... ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المنهاج، فلم يقولوا: هو الله، ولا ابن

(١) سورة المائدة آية: ٧٠.

(٢) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦١)، أحمد (٤٧/١).

الله، ولا ثالث ثلاثة، كما تقول النصارى، ولا كفروا به، وقالوا على مريم بهتانًا عظيمًا، حتى جعلوه ولد بغية، كـــما زعمت اليهود، بل قالوا: هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم... وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله).

ووسطية أهل الإسلام المستقيمين على هديه، تبدو في الاعتدال والتوازن بين مطالب الدنيا والنظرة إليها، ومطالب الآخرة والعمل لها، والأخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك، دون إفراط أو تفريط، ودون إسراف أو تقتير، قال الله تعالى: { وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ } [1] . (القصص الآية ٧٧). يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيـــل، والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات.... ولا تنس نصيبك من الدنيا، أي: مما أباح الله لك فيها من المآكل والمشارب والملابس والمناكح، فإن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا).

فالإسلام وسط بين من غلا في أمر الدنيا، و لم يهتم بالآخرة، وبين من غلا فـــي أمر الآخرة، ونظر إلى الدنيا نظرة ازدراء وابتعاد. وهكذا التوازن بين مطالب البدن ومطالب القلب.

فقد بلغ الرسول ﷺ أن ثلاثة رهط، أراد أحدهم أن يصلي الليل أبدًا، وأراد ثانيهم أن يصوم الدهر ولا يفطر، وعزم الثالث على أن يعتزل النساء، فقال ﷺ { أنتم قلتم كـــذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أنا أصلي، وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني } [2] . (متفق عليه).

ومن ذلك الاعتدال في تناول الطيبات:

---

(١) سورة القصص آية: ٧٧.

(٢) البخاري النكاح (٤٧٧٦)، مسلم النكاح (١٤٠١)، النسائي النكاح (٣٢١٧)، أحمد (٣/٢٨٥).

{ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ } [1] . (الأعراف الآية ٣١).

والاعتدال والتوازن في الإنفاق:

{ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ } [2] .

(الإسراء الآية ٢٩).

{ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ } [3] .

(الفرقان الآية ٦٧).

(١) سورة الأعراف آية: ٣١.

(٢) سورة الإسراء آية: ٢٩.

(٣) سورة الفرقان آية: ٦٧.

الوسطية في العقيدة

لقد خلص التوحيد في عقيدة المسلمين لله سبحانه مما شابه- بفعل تقادم العهد- من الشرك بالله، واتخاذ الأوثان والأصنام آلهة.

كما خلص من كل دعوات التشبيه والتعطيل، التي ابتدعها أصحاب المذاهب التي استمدت من ثقافات غير إسلامية.

وخلص من كل الأفكار الضالة والمنحرفة عن كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ .

لقد سادت بين أهل السنة والجماعة عقيدة التوحيد الخالص، و لم يتأثروا بما واجهوه من انحرافات وأباطيل، وقاوم فقهاء أهل السنة وعلماؤها التيارات المنحرفة، وهم أهل الاستقامة، وأصحاب الصراط المستقيم، والفرقة الوسط.

لقد كان لهؤلاء العلماء أكبر الأثر في الحفاظ على وسطية الأمة وفكرها العقدي المستمد من القرآن الكريم ومن السنة النبوية، وقد لقي بعضُ الفقهاء في ذلك عنتًا وشدة، كما حدث للإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله- الذي تصدى لفتنة القول بخلق القرآن التي ثارت في عهد المأمون.

لقد كانت الوسطية بمعناها القرآني، هاديًا وسراجا للدعاة والفقهاء، وسط تيارات عقدية تريد أن تزحزح الوسطية بمعناها القرآني عن مكانتها في الفكر الإسلامي.

لقد ساد في الفكر الإسلامي الصحيح، التوازن الظاهر بين الدين والدنيا، وبين العقل والنقل، وبين عَالَم الغيب وعَالَم الشهادة، وبين النفس والبدن.

يقول الغزالي - رحمه الله- في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد: (إن نظام الدين لا يكتمل إلا بنظام الدنيا، وإن نظام الدنيا شرط لنظام الدين).

فالوسطية الإسلامية، ليست سمة لفكر علماء معينين، ولكنها سمة العقيدة الإسلامية التي تمسَّك بها أهل السنة والجماعة في عصور المسلمين المختلفة، واعتبروا كل من يخرج عن هذه الوسطية في الاعتقاد أو السلوك، خارجًا عن الأعدل والأوسط، وذَمَّ هؤلاء

العلماء كل غلو أو تطرف يريد الإخلال بصفة الوسطية بمعناها القرآني، ويفرض الانحراف الفكري أو السلوكي في المجتمع الإسلامي.

لقد سادت الوسطية في التفكير الإسلامي، سواء تعلق ذلك بالعقائد أم بالتشريع، وهو مجال رحب لظهور وسطية الإسلام.

وقد استدل علماء المسلمين على مقولاتهم في العقيدة، أو الفقه، بالنقل الذي لا يخالفه العقل السليم، وميزوا بين الواقع والمثال، وبين الغايات والوسائل، واستدلوا بما في القرآن الكريم من الحوار والحِـــجَاج العقلي والمنطقي، وقياس الأمور على أشباهها وأمثالها.

إننا نجد في القرآن الكريم فـــي الإيمان بالله ووحدانيته، ووجوب إفراده بالعبادة سبحانه، توجيهًا للإنسان للنظر في الكون المشهود، للاستدلال به، إلى جانب عَالَم الغيب الذي وردت في القرآن حقائق عنه، وكـــثير من مشاهده، يقول الله تعالى: { وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ } [1]. (الذاريات الآيتان ٢٠، ٢١).

ويقول سبحانه:

{ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ } [2].

(البقرة الآية ١٦٤).

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا.

وفي مجال النبوات والوحي، ترد الأدلة في القرآن الكـــريم بما تخضع له الـــعقول السوية والمنطق السليم.

---

(١) سورة الذاريات آية: ٢١.

(٢) سورة البقرة آية: ١٦٤.

وفـــي تصديق الرسول والرسالة الخاتمة، والتدليل على صدقه ﷺ يقول الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ مخاطبًا المنكرين:

{ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ } [1] . (يونس الآية ١٦).

ويأخذ على الكفار فساد حجتهم في قولهم: إنما يعلِّمه بشر، فيقول تعالى: { وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣ } [2] . (النحل الآية ١٠٣).

وهذا التدليل، يجمع بين الفطرة الإنسانية السليمة القابلة للإيمان بالله، وبين الدليل العقلي أو الحِجَاج المنطقي.

وهي وسطية، تخلو من التطرف والغلو الذي عابه ابن حزم على من أوجبوا لصحة الإيمان اصطناع الدليل العقلي بمقدمات ونتائج.

فلم يترك أهل السنة والجماعة التدليل العقلي، مع ما في أيديهم من حجة الكتاب والسنة، وهي الحجة البالغة.

ولم يستسلموا للعقل وحده في قضية الإيمان والوحدانية وعَالَم الغيب، كما فعلت الفلسفات القديمة، أو العلمانية الحديثة، حين اقتصرت على الدليل العقلي أو المنطقي، أو القياس الفاسد بين عَالَم الغيب وعَالَم الشهادة، في قضايا الإيمان والوحي والرسالات السماوية، فجاء فكرها منقوصًا ومنقوضًا ومتصفا بالغلو والتطرف، في تقديس العقل وإهمال النقل، وقصور المنهاج، وكذلك لم يسلكوا مسلك الأشاعرة الذين ألغوا دلالة العقل في الأحكام الشرعية، ولا مسلك المعتزلة الذين قالوا باستقلالية العقل في التشريع، وهو ما يسمونه التحسين والتقبيح العقلي.

---

(١) سورة يونس آية: ١٦.

(٢) سورة النحل آية: ١٠٣.

إن المسلمين هم أول من سعى لإزالة التعارض الظاهري بين العقل والنقل، وأفردوا تلك القضية بمؤلفات عظيمة تدل على رسوخ قدمهم في المسائل العقلية، والحجج المنطقية، إلى، جانب حيازتهم قصب السبق في العلوم النقلية، على غرار ما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الفريد (درء تعارض العقل والنقل).

وبذلك لم يدخل علماء المسلمين في متاهات الفلسفة الإغريقية، التي لم تنتج شيئًا له قيمة في قضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وشَبَّهها بعض فلاسفة الغرب المحدَثين بأنها حرث في الماء.

توسط أهل السنة والجماعة بين الفرق الإسلامية

أهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية من بين الفرق الإسلامية، وهم أصحاب المنهاج الحق، الذي يمثل وسطية الأمة الإسلامية.

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله: (وهذه الفرقة الناجية هـــم وسط في النِحل، كما أن الإسلام وسط في الملل).

ويقول: (وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط؛ لأنهم متمسكون بكـــتاب الله وسنة رسوله، وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان).

فأهل السنة وسط في مبحث الإيمان، والوعد والوعيد، ومرتكب الكبيرة، فلم يقولوا: إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، لا يضره ارتكاب الكبيرة شيئًا، كما قالت المرجئة، و لم يقولوا: إنه كافر مخلد في النار، كما قالت الخوارج، و لم يقولوا: إنه يخرج من الإسلام ولا يدخل في الكفر، بل في مترلة من المترلتين، كما قالت المعتزلة.

بل توسَّط أهل السنة في ذلك، فقالوا: إنه مؤمن ناقـــص الإيمان، مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وهو تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه، ولا يخلد في النار، بل يدخل الجنة. وتوسط أهل السنة في مبحث القضاء والقدر، فلم يقولوا: إن العبد مجبور على فعله، لا قدرة له، ولا إرادة، كقول الجبرية، ولا أنه يخلق فعل نفسه، وأن الله ليس بخالق لأفعال العباد، كقول المعتزلة.

بل قالوا: إن للعبد إرادة، وهو فاعل لأفعاله في الحقيقة ومسؤول عنها، والله سبحانه خالق للعبد وأفعاله.

وأهل السنة وسط في باب صفات الله، بين المعطلة النفاة، والمشبهة الممثلة، حيث يصف أهل السنة ربهم- سبحانه وتعالى- بما وصفه به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يثبتون لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له

رسوله، وينفون عنه مماثلة المخلوقات، ويتزهونه عن أي نقص: { لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ } [1] . (الشورى الآية ١١).

وتوسط أهل السنة في القول في الصحابة رضوان الله عليهم، فلم يكفروا أحدا منهم، كما فعلت الخوارج، أو يفسقوه، كـــما فعلت المعتزلة، ولم يروا العصمة لأحد منهم، أو يغلوا فيه، بل هم بشر يخطئون ويصيبون، وحملوا أعمالهم على أفضل المحامل.

وتوسط أهل السنة والجماعة في تعظيم رسول الله ﷺ فلم يرفعوه عن مقام الرسالة، ويدَّعوا له شيئًا من خصائص الألوهية، مثل طائفة البريلوية، ولم يتخذوا قبره عيدًا، ولم يفرطوا في حقه، مثل: غلاة الرافضة، فيفضلوا أحدًا من الناس مهما كان عليه.

بل يعتقدون أنه عبد الله ورسوله، وأنه أفضل المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، ويرون وجوب محبته، وأنها من الإيمان، ومن لوازمها طاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأنه خاتم النبيين، ولا يعلم من الغيب إلا ما علَّمه الله، وأنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، ويحذرون من الغلو فيه.

وكذلك لم يرفـــع أهل السنة الصالحين فوق مترلتهم، ويفرطوا في تعظيهم، كما هو شأن بعض الفرق، مثل: الرافضة والصوفية، ولم يقصروا في هذا الجانب، كما هو شأن طوائف أخرى، مثل: المعتزلة والجهمية.

بل رأوا موالاة الصالحين، وذكر محاسنهم، والدعاء لهـــم، وأنهم أولياء الله، وأن لهـــم كرامات، ولا يفضلونهـــم على الأنبياء، أو يقولون بعصمة أحد منهم، ولا يجيزون بناء المساجد والقباب على قبورهم.

ومن صفات أهل السنة والجماعة، العمل بالعلم، فقد روي عن الرسول ﷺ قوله: { طوبى لمن عمل بعلمه } . (رواه الطبراني والبيهقي).

وتوسطوا بين من لا يعملون بعلمهم، ومن يعملون بلا علم.

---

(١) سورة الشورى آية: ١١.

كما لا يُزهِّدون الناس في العلم ويُنفِّرونهم منه، كما نُقل عن بعض الصوفية.

هذا هو منهاج أهل السنة والجماعة فـــي الاعتقاد، المنهاج الوسط الذي جاء من عند الله، وبيَّنه رسوله ﷺ ودعا إليه، وسار عليه الصحابة- رضوان الله عليهم، ومن تبعهم بإحسان.

الوسطية في التشريع الإسلامي

لا شك أن التشريع الإسلامي، هو التشريع الوسط والأكمل بين الشرائع.

ولذلك أهميته الكبرى؛ لأن الشريعة الملزمة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هي الأساس في وحدة الأمة الفكرية والنفسية والعملية.

وينبغي التمييز الحاسم والواضح بين أحكام الشريعة، متمثلة في نصوص الكتاب والسنة، وبين الاجتهاد والنظر في هذه النصوص.

ولذلك، فإن الوسطية تبدو في حقيقتها، وفي أكمل صورها في النصوص الشرعية ذاتها.

والفقه الإسلامي في جملته، والاجتهاد في أحكام الشرع،. يستلهم تلك الوسطية المثلى القائمة في النصوص.

وقد كانت الوسطية الإسلامية بمعناها القرآني، غائبة تمامًا عن كل القوانين الوضعية، ولا سيما في أصولها القديمة، وحتى إذا كانت هذه القوانين تنشد العدالة، فإن العدل بوصفه قيمة، تتغير صورته بحسب الزمان والمكان.

وعلى سبيل المثال، فقد كان القانون الروماني، يحرم الأرقاء من كل مشاركة في الحياة العامة، وكان يجيز قتل كل الأرقاء الذين في خدمة النبيل إذا ثبت تآمر واحد منهم عليه، وكان من حق الدائن قتل المدين العاجز عن السداد، أو استرقاقه إلى الأبد، وطبقا لأحكام ذلك القانون، كانت المرأة تدخل بيت زوجها عن طريق البيع أو وضع اليد، فيشتري الزوج زوجته بإجراءات البيع والشراء، وظل ذلك فترة طويلة.

أما الوسطية القرآنية، فإنها تتجلى في منهاج التشريع الإسلامي كله.

ويبدو ذلك وأضحًا في تنظيم المال والملكية، والاعتراف بملكية الفرد للمال، إلى جانب أنه يملكه استخلافا من الله عز وجل؛ لكي يؤدي رسالته في الحياة:

{ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ } [1] . (الحديد الآية ٧).

كما يبدو المنهاج الوسط، في الإقرار بحق الفرد في المال، إلى جانب الاعتراف بأن للجماعة فيه حقًّا مقدرًا أو محددًا، يخصص لفقراء الجماعة، وهو الزكاة: { وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩ } [2] . (الذاريات الآية ١٩).

{ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥ } [3] . (المعارج الآيتان ٢٤، ٢٥).

وقد أضيف المال في القرآن الكريم إلى صاحبه، كما في الآيتين السابقتين، وأضيف ملك السماوات والأرض وما فيهن إلى الله ﷻ قال تعالى:

{ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١٢٠ } [4] . (المائدة الآية ١٢٠).

كما أضيف المال بخصوصه إليه تعالى، قال سبحانه:

{ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ } [5] . (النور الآية ٣٣).

وهذا المنهاج في النظر إلى المال، والهدف منه، وكيفية اكتسابه، وكيفية إنفاقه، هو المنهاج الأكمل والأعدل، في تنظيم أمر هام وجوهري في حياة الإنسان، وهو يتفق مع فطرة الإنسان وغريزته في حب التملك والاستئثار، ويوازن بينها وبين حق المجتمع في مال الله، وأن المال - ولو كان مملوكًا للفرد- فيه حقوق لله أو للجماعة.

(١) سورة الحديد آية: ٧.
(٢) سورة الذاريات آية: ١٩.
(٣) سورة المعارج آية: ٢٥.
(٤) سورة المائدة آية: ١٢٠.
(٥) سورة النور آية: ٣٣.

ذلك هو المنهاج الأمثل الذي يحفظ مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، ويوازن بينهما موازنة عزَّت على أصحاب المذاهب والنظريات البشرية قديمَاَ وحديثًا.

إن الموازنة واضحة في التشريع الإسلامي بين حقوق الله وحقوق العباد، مع أن الله تعالى هو المالك لكل شيء، وإليه يرجع الأمر كله.

ورحمة من الله بالإنسان، قضى بأن يتمكن من التصرف في بعض الحقوق كما يريد؛ لأنه يحتاج إلى ذلك في حياته ومعاشه، بينما هناك حقوق لا تتعلق به وحده، حتى وإن كان ظاهرها يومئ إلى ذلك.

ففي حد السرقة مثلًا، لا يصح للإنسان المسروق ماله أن يطلب إعفاء السارق من عقوبة الحد، إذا توافرت شروطه الشرعية، مع أن المال المسروق ملكه، وكان يستطيع أن يهبه للسارق قبل أن تقع الجريمة، وتستكمل أركانها، وشروط توقيع الحد؛ لأن التنازل عن حد السرقة يدعو إلى شيوعها في المجتمع، وهو ما يقف دونه الشرع.

وفي جريمة القتل العمد، وهي تقع على القتيل، ويقع ضررها على أقرب الناس للمقتول، وتضر بأمن المجتمع، نجد لأولياء القتيل حق العفو نظير دية، أو بغير مقابل، ونجد حق الولي أيضا في طلب القصاص، أخذًا بالعدل وشفاء للنفوس.

هذا المنهاج التشريعي الأكمل والأعدل، يوازن بين الحقوق، ولا يضيف حقاَ لأحد على حساب الآخر، ويتلافى عيوب مناهج أخرى عديدة، جعلت أولياء الدم لا سلطان لهم على الإطلاق، أو جعلت عقوبة القتل لازمة في كل حال، أو ألغت عقوبة القتل كلية، دون سند من عدل أو مصلحة، تعود على الفرد أو على المجتمع.

وفي التشريع الإسلامي، موازنة دقيقة بين التكليف وبين الاستطاعة، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، والمشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات.

وفي مجال العبادات اعتبر الشرع أعذارًا عديدة تعفي المكـــلف، وإن لم تكن المشقة متحققة؛ نظرًا إلى أن العذر يؤدي إليها غالبًا، أو أن العذر مظنة للمشقة.

ومن تلك الأعذار، السفر في قصر الصلاة وإباحة الفطر، وكذلك الحيض في إعفاء المرأة من الصلاة أيامًا، يرجح فيها مشقة القيام بالتكليف بالصلاة أثناء حيضها، الذي هو من فطرتها التي فطرها الله عليها.

لقد بُعث رسول الله ﷺ رحمة للعالمين: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ } [1] . (الأنبياء الآية ١٠٧).

وقال تعالى:

{ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ } [2] . (التوبة الآية ١٢٩).

وقال ﷺ { إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا } [3] . (رواه مسلم).

فمنهاج الإسلام مبني على اليسر، ورفع الحرج، قال الله تعالى:

{ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ } [4] .

(البقرة الآية ١٨٥).

وقال سبحانه: { وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ } [5] . (الحج الآية ٧٨).

وكان ﷺ يترك بعض الأفعال خشية المشقة على أمته، وكان إذا خُيِّر بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ١٠٧.

(٢) سورة التوبة آية: ١٢٨.

(٣) مسلم الطلاق (١٤٧٨).

(٤) سورة البقرة آية: ١٨٥.

(٥) سورة الحج آية: ٧٨.

ولما بَعث ﷺ معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري إلى اليمن قال لهما: { يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا } [1] . (متفق عليه).

ومن أقواله المشهورة- صلى الله عليه وسلم: { إن الدين يسر ولن يشاد الديـــن أحد إلا غـــلبه، فسددوا وقاربوا.. } [2] الحديث ". (رواه البخاري).

وللإنسان أن يأخذ بالأشد من المشروع، كأن يصلي صلاة طويلة، ولكن ليس له أن يُلزم الناس بذلك، فقد كان ﷺ أطول الناس صلاة إذا صلى لنفسه، ولكنه كان يخفف صلاته إذا صلى بالناس، مراعاة لأحوالهم.

ولما سمع ﷺ بعزم نفر من أصحابه على الانقطاع للعبادة، قال: { إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني } [3] . (متفق عليه).

إن منهاج الإسلام هذا وسط بين اليهود الذين فرطوا فـــي جنب الله، وحرصوا على الدنيا وملذاتها، كما قال الله تعالى عنهم: { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ } [4] . (البقرة الآية ٩٦).

والنصارى الذين غلوا وابتدعوا رهبانية لم يشرعها الله، كما قال الله عنهم: { وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا } [5] . (الحديد الآية ٢٧).

---

(١) البخاري الجهاد والسير (٢٨٧٣)، مسلم الأشربة (١٧٣٣)، أحمد (٤/٤١٧).

(٢) البخاري الإيمان (٣٩)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤).

(٣) البخاري النكاح (٤٧٧٦)، مسلم النكاح (١٤٠١)، النسائي النكاح (٣٢١٧)، أحمد (٣/٢٨٥).

(٤) سورة البقرة آية: ٩٦.

(٥) سورة الحديد آية: ٢٧.

لقد ذمهم الله لابتداعهم في دينه ما لم يأذن به، وفي عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله.

إن تشريع الله في العبادة، تشريع متوسط معتدل، بين الإفراط والتفريط، والغلو والتقصير: { قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ } [1] . (الإسراء الآية ١١٠).

وعن جابر بن سمرة - رضي الله عنهما- قال: { كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات، فكانت صلاته قصدًا، وخطبته قصدًا } [2] . (رواه مسلم).

أي: كانت معتدلة، وسطًا بين الطول والقصر.

ولا نستطيع في هذا المجال، أن نفصِّل وسطية التشريع الإسلامي، وعدله، وأفضليته في الأحكام الشرعية كلها، في العبادات، وفي المعاملات، وفي قواعده العامة، وأصوله الكلية، فهذا يحتاج إلى دراسة مقارنة دقيقة، بين منهاج التشريع الإسلامي، وبين ما هو موجود في قصور المناهج الوضعية كلها، قديمًا وحديثًا.

إن وسطية التشريع الإسلامي، تعني أنه الأكمل والأقوم والأعدل لحياة الإنسان بالمعنى القرآني للوسطية.

فتشريع العبادات في هيآتها ومقاديرها وتكاليفها ومراتب وجوبها على المكلف، تتفق مع الأعدل والأقوم، وفطرة الإنسان، في الجمع بين الدنيا والآخرة.

وفي أحكام المعاملات كما أشرنا، لا سيما في النظر إلى المال وملكيته، وحق الفرد وحق الجماعة فيه، تحصيلًا وكسبًا وإنفاقًا، نجد الوسطية ظاهرة.

---

(١) سورة الإسراء آية: ١١٠.

(٢) مسلم الجمعة (٨٦٦)، الترمذي الجمعة (٥٠٧)، النسائي صلاة العيدين (١٥٨٢)، أحمد (٩٨/٥)، الدارمي الصلاة (١٥٥٧).

وذلك لكي يدوم هذا التشريع الإلهي، صالحًا للناس في كل زمان ومكان، مما يجنب الأمة الإسلامية مخاطر التطرف والغلو والشطط، وغير ذلك مما نراه في كثير من شرائع البشر التي تختلف وتتعارض بحسب الزمان والمكان، والظروف والأهواء.

الوسطية في الدعوة

من فضل الله على الأمة الإسلامية، أن الرسالة الخاتمة جاءت شاملة لكل ما يحتاجه المسلمون في حياتهم الدينية والدنيوية، موجهة لكل الثقلين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ذلك أن الهدف هو هداية الله للإنسان، دون قصر الدعوة على جنس بذاته، أو مكان معين؛ إذ إن دعوة الرسول- صلى الله عليه وسلم- موجهة إلى الناس كافة، قال الله تعالى:

{ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا } [1] .

(الأعراف الآية ١٥٨)

وقال تعالى:

{ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ } [2] . (الأنبياء الآية ١٠٧).

وقال تعالى: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا } [3] . (سبأ الآية ٢٨).

وعلى ذلك إجماع المسلمين في كل العصور.

وقد وَضُحَ في القرآن الكريم، والسنة النبوية، كيف يؤدي المسلمون واجبهم في الدعوة إلى الله، وهو جانب من المنهاج الإسلامي الكامل.

وإن واجب المسلم لا يقتصر على نفسه فحسب، دون أن تكون له صلة بالمجتمع من حوله، ودون محاولة لهداية غيره إلى الله، متى كان قادرًا على ذلك.

بل تمتد رسالة المسلم إلى إصلاح غيره، مع إصلاح نفسه، وإلى رعاية حق الآخرين في معرفة طريق الهداية والفلاح.

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٥٨.

(٢) سورة الأنبياء آية: ١٠٧.

(٣) سورة سبأ آية: ٢٨.

ويُقصد بوسطية الدعوة، أن منهاج الدعوة إلى الله، هو أوسط المناهج وأعدلها وأقومها، وهو الجدير وحده بالاتباع في كل زمان ومكان، وأن هذا المنهاج جانب من التشريع الإلهي، يجب أن يلتزم به المسلم إزاء الآخرين، سواء أكانوا مسلمين يحتاجون إلى تنمية المعارف، أو تزكية النفوس، حتى يكون اتباعهم للشريعة صحيحًا، أم كانوا غير مسلمين تطلب لهم الهداية.

ويمكن أن نحدد بعض الملامح المهمة في منهاج الدعوة، التي وردت في القرآن الكريم أو في السنة النبوية.

وهي أمور ينبغي للدعاة جميعًا التقيد بها، لا سيما الشباب من الدعاة إلى الله؛ إذ يتميز هؤلاء بفرط حماسهم إلى جانب إخلاصهم، وقد يرغبون في استعجال الثمرة والشعور بالنجاح في أداء رسالتهم، مما يدفع بعضهم إلى مجاوزة المنهاج الوسط، وهو الأقوم والأعدل في الدعوة إلى الله.

من أبرز الملامح في منهاج الدعوة، أن هداية الناس بيد الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، قال تعالى:

{ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ } [1] . (القصص الآية ٥٦).

وأن مهمة الدعاة التبليغُ والبيان، قال الله تعالى:

{ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢ } [2] . (التغابن الآية ١٢).

وقال تعالى:

{ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ } [3] . (الشورى الآية ٤٨).

فإذا بذلوا جهدهم فـــي ذلك، فقد قاموا بالواجب، وأدوا الأمانة:

(١) سورة القصص آية: ٥٦.

(٢) سورة التغابن آية: ١٢.

(٣) سورة الشورى آية: ٤٨.

{ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ } [1] . (الشعراء الآية ٣).

والإنسان يؤمن ويهتدي باختياره، ويكفر ويعصي باختياره كذلك، وسيجازى على عمله، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، قال الله تعالى:

{ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ } [2] .

(البقرة الآية ٢٥٦).

وقال سبحانه في حق الرسول صلوات الله عليه وسلامه:

{ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٩٩ } [3] . (يونس الآية ٩٩).

ومن سنن الله القائمة، اختلاف الناس بين الإيمان والكفر: { وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٣ } [4] .

(السجدة الآية ١٣).

{ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ } [5] .

(هود الآية: ١١٨- ١١٩).

وهذا من أهم ما يجب أن يعرفه الداعي إلى الله، فهو يدعو ويبذل جهده، ويبسط علمه أمام المدعوين، والله سبحانه يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم.

ومن أهم ملامح منهاج الدعوة إلى الله، وضوح طريقه ووسائله في القرآن الكريم، والسنة النبوية.

---

(١) سورة الشعراء آية: ٣.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٥٦.

(٣) سورة يونس آية: ٩٩.

(٤) سورة السجدة آية: ١٣.

(٥) سورة هود آية: ١١٩.

وأن الدعوة تكون عبر وسائل ثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، كما قال الله تعالى:

{ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ } [١] .

(النحل الآية ١٢٥).

وهذه الوسائل الثلاث، تشمل كل أصناف المدعوين:

فالحكمة: وهي ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة، تجذب أصحاب العقول والفطر السوية.

والموعظة الحسنة: أي ما في الكتاب والسنة من الزواجر والوقائع بالناس، يذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى.

والداعية بهذه الوسيلة يستميل أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والذين تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.

أما من يحتاج فهمه إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال الله تعالى:

{ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ } [٢] .

(العنكبوت الآية ٤٦).

لقد أمر الله نبيه ﷺ ومن بعده الدعاة على طريقته، بالجدال بالوجه الحسن، وبلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون - عليهما السلام- حين بعثهما إلى فرعون في قوله تعالى:

{ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ } [٣] . (طه الآية ٤٤).

---

(١) سورة النحل آية: ١٢٥.

(٢) سورة العنكبوت آية: ٤٦.

(٣) سورة طه آية: ٤٤.

وهذه الأساليب الثلاثة، أهم أساليب الدعوة التي لا يخرج عن نطاقها والتأثر بها من المدعوين إلا من قال الله تعالى فيهم:

{ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } [1] . (الأعراف الآية ١٤٦).

ومنهاج الإسلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو باب من أبواب الدعوة إلى الله، منهاج الوسط والاعتدال.

فمن أوصاف الأمة الإسلامية التي استحقت بها الخيرية على الأمم، كونها تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، قال الله تعالى: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ } [2] . (آل عمران الآية ١١٠).

وقد استحق بنو إسرائيل اللعن بتركهم لهذه الشعيرة، قال الله تعالى:

{ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ } [3] . (المائدة الآيتان ٧٨، ٧٩).

وعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، أن يبدأ بنفسه، فيكون قدوة للآخرين، فقد عاب الله من يقول ولا يفعل:

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ } [4] . (الصف الآيتان ٢، ٣).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يختلف من حال إلى حال.

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٤٦.

(٢) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٣) سورة المائدة آية: ٧٩.

(٤) سورة الصف آية: ٣.

ومنهاج الإسلام فيه، منهاج الوسط والاعتدال، وتقدير الأحوال والظروف والنتائج، ومراعاة الاستطاعة والقدرة.

لقد قامـــت الدعوة إلى الـــله على منهاج الوسطية، وكانت سنة النبي ﷺ مثلا أعلى في تطبيق هذا المنهاج، الذي سار على هديه الخلفاء الراشدون، والتابعون لهم بإحسان.

وفي هذه الفترة القليلة من الزمن في حياة الأمم، دخل الناس في دين الله أفواجًا، وتكوَّن المجتمع المسلم الواحد في عقيدته وشريعته وسلوكه الاجتماعي، على الرغم من امتداد، الإسلام إلى أقاليم خارج شبه الجزيرة العربية، مثل: مصر والعراق والشام.

وكانت الدعوة إلى الله وفق منهاج الوسطية القرآنية، هي السبيل الأول لانتشار الإسلام ودعوته.

المنهاج النبوي في الدعوة إلى الله

إن المنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، وهو المنهاج الوسط، يستدعي أن يتوفر في الدعاة إلى الله أمران مهمان:

الأمر الأول: الإخلاص لله، بحيث تكون نية الداعي فـــي دعوته متجردة عن الهوى وحب الشهرة أو مغالبة الآخرين، أو تكثير الأتباع والأنصار، أو الحصول على مكاسب دنيوية.

أي: تكون خالصة لله وحده، باعتبار الدعوة عبادة لله سبحانه، وتبليغًا عن رسوله ﷺ مراده سبحانه من رسالة الإسلام.

الأمر الثاني: متابعة رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله علمًا وعملًا، فهمًا وتطبيقًا.

وهذان الأمران هما المرادان من قوله الله تعالى: { فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ } [1] . (الكهف الآية ١١٠).

قال ابن كثير: (وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم).

ومتابعة الداعي لرسوله محمد ﷺ تتطلب منه التفقه في دين الله، ومعرفة ما دل عليه الكتاب والسنة فيما يدعو إليه، وما سار عليه السلف الصالح، باعتبارهم جماعة الحق والفرقة الناجية، التي قال عنها رسول الله ﷺ { افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا ملة واحدة، قالوا، من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي } [2] . (رواه الترمذي).

---

(١) سورة الكهف آية: ١١٠.

(٢) الترمذي الإيمان (٢٦٤٠)،أبو داود السنة (٤٥٩٦)،ابن ماجه الفتن (٣٩٩١)،أحمد (٣٣٢/٢).

لقد ضلت كثير من الفرق والطوائف في التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا بسبب عدم التفقه في الدين، وعدم متابعة الرسول ﷺ وعـــدم معرفة ما كان عليه السلف الصالح.

وبذلك لم تتبع هذه الفرق سبيل المؤمنين، بل شاقَّت رسول الله ﷺ وخرجت عن الفرقة الناجية التي تمثل أمة الإسلام، الأمة الوسط، فاستـــحقت وعيد الله في قوله سبحـــانـــه { وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ } [1] . (النساء الآية ١١٥).

إن علامة الفرقة الناجية، هي متابعة رسول الله ﷺ ولزوم طريق المسلمين، من صحابته رضوان الـــله عليهـــم، ومن تبعهم وتابعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ومن مقتضى الإيمان برسول الله ﷺ متابعته وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، والاستمساك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، كما قال عليه الصلاة والسلام في موعظته البليغة لأصحابه، التي أوصاهم فيها بالسمع والطاعة، وأخبرهم بأنه من يعش منهم فسيرى اختلافًا كثيرًا، وأن العاصم من الفتن والمرجع عند الاختلاف، هو العمل بسنته وسنة خلفائه الراشدين: { أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن ولي عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكـــم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكـــم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ } [2] . (رواه الإمام أحمد).

وقال الله تعالى في هذا المعنى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ } [3] . النساء الآية ٥٩)

---

(١) سورة النساء آية: ١١٥.

(٢) الترمذي العلم (٢٦٧٦)،ابن ماجه المقدمة (٤٤)،أحمد (١٢٦/٤)،الدارمي المقدمة (٩٥).

(٣) سورة النساء آية: ٥٩.

وقال تعالى: { قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ } [1] . (آل عمران الآية ٣١). وهكذا: إذا أراد أي مسلم النجاة، وعلى وجه الخصوص العالم والداعية، فلا بد أن يتوافر في عمله أمران:إخلاص العمل لله وحده، ومتابعة رسوله ﷺ وصحبه الكرام، وسلف الأمة الصالح. وبهذا يكون من الفرقة الناجية المعتصمة بالكتاب والسنة.

(١) سورة آل عمران آية: ٣١.

الانحراف عن منهاج الواسطية

في آخر عهد الخليفة عثمان ﷺ ظهرت الفتنة بالانحراف عن هذا المنهاج الوَسَطيِّ في الدعوة، وأطلت الفتنة برأسها، وانتهت بمقتل الخليفة عثمان -رضي الله- عنه ظلمًا وعدوانًا.

وكانت هذه بداية الفتنة الكبرى في تاريخ الإسلام، وذلك حينما انحرفت دعوة الإصلاح أو الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن الوجه الشرعي الصحيح، وظهر الخوارج عن منهاج الوسطية في الدعوة إلى الله، فكان ظهورهم انحرافًا عن منهاج الإسلام في الدعوة إلى الإصلاح، وذكَّرهـــم الخليفة الراشد علي ﷺ بهذا المنهاج الأقوم والأرشد، ولكنهم تنكبوا الطريق، وعَدَوا على ولي الأمر وخليفة المسلمين بعد أن بايعه الناس ورضوه إمامًا لهم، وكان مسلكهم فيما يتظاهرون به من الدعوة إلى الله، على ما تحكي كتب التاريخ الإسلامي، واضح البطلان والزيف.

كانوا يتمسكون لفظًا بشعارات الإسلام، ويرتكـــبون عمدًا ما تنكره فرائض الإسلام وشريعته، فلم يصلوا إلى أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر، وتفرقت جموعهم إلى فرق شتى، بعضها خرج من الإسلام كما يخرج السهم من الرمية.

تحكي كتب التاريخ أن جماعة من الخوارج التقوا عبد الله بن خباب بن الأرت ﷺ وامرأته حامل متم، فجادلوه وقتلوه وامرأته، وشقوا بطنها عدوانا وظلمًا، ووضع أحدهم تمرة في فمه، فذكَّره زميل له بأنها لا تحل له؟ لأنها من نخل رجل كتابي، فأسرع الخارجي بلفظ التمرة من فمه، كأنه يرى ذلك ذنبًا عظيمًا أكبر في الإثم من قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق.

وكفى بذلك وما ذكره المؤرخون من تعسفهم في الفهم، وتأويلهم الباطل، وانحرافهم في القصد، دليلا على مجانبتهم وزيغهم عن الحق، والمنهاج الأوسط والأقوم.

لقد ظل اسم الخوارج منذ انحرافهم الأول يطلق على كل فئة ضالة، تخرج عن منهاج القرآن وسنة الرسول ﷺ في إصلاح القلوب، وتزكية النفوس، وتشق عصا الطاعة، وتخرج على ولي أمر المسلمين، وتفارق الجماعة.

وقد ابتلي العالم الإسلامي في مناطق مختلفة منه بالابتعاد عن منهاج الوسطية في الدعوة، فأضر ذلك كثيرًا بانتشار الإسلام، والتزام المسلمين بأحكامه.

فهناك من فرطوا في الدين، وسعوا إلى تبديل حكم الله، واتباع ا لأهواء، والابتعاد عن جماعة المسلمين.

وهناك من الدعاة من ظنوا أن ذلك لا يصلحه إلا التشدد والغلو، واتهام الأولين بالكفر والمروق من الدين، وإباحة دمائهم وأموالهم دون دليل شرعي سليم.

وبدأت تنتشر في العصر الحديث، دعوات وفرق وجماعات من المسلمين، تجانب الوسطية في دعوتها إلى إصلاح القلوب وتزكية النفوس، وهي تجاهر بعدائهما لأمتها، وأولياء الأمر فيها، وسائر الناس، وتخلع الطاعة التي يقوم عليها نظام المجتمع وسلامته، وأمن أفراده، وحرمة أموالهم وأنفسهم.

ومن الغريب أنهم يذهبون في ذلك مذاهب أهل الضلال والغلو من أتباع الأديان الأخرى مما عرف بالأصولية، يستهدفون التشدد والبعد عن إعمال العقل، ويهتمون بمقاصد سياسية ظاهرة، بقصد السيطرة على المجتمع.

ومع الأسف سرعان ما نسب هذا الغلو والتطرف إلى الإسلام، وكأنه منه، فأصبحت كلمة الأصولية- وهي كلمة أوروبية المنشأ والأصل- وصفا للجماعات الإسلامية التي يعيبها التشدد والغلو، وتكفير الناس، واستباحة الدماء والأموال، والمسارعة إلى الخروج عن الطاعة.

وهذا كله مما يرفضه الإسلام ويدينه، ويرفضه أهل العلم فيه، جرى على ذلك فقه السلف والخلف، منذ ظهر الخوارج في العالم الإسلامي.

وهكذا ساعدت بعض جماعات المسلمين بمسلكها المجانب للوسطية والمخالف لشرع الله، في إلصاق مذاهب أهل الضلال بالإسلام واستيرادها إلى بلاده؛ لتقطع عليها طريق أمنها واستقرارها.

فتنة التكفير

ومن أخطر صور الانحراف عن منهاج الوسطية، والبعد عن طريق رسول ﷺ وصحابته الكرام، ومن تبعهم بإحسان، القول بتكـــفير أصحاب الكبائر وخروجهم من الإسلام، تلك الفتنة القديمة الجديدة: قديمة؛ إذ قالت بها فئة ضالة خرجت على جماعة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين، فسماها المسلمون (الخوارج)، وترتـــب على ضلالها في التكفير، والقول على الله وعلى رسوله بغير علم، فتن وخلافات بين المسلمين، سُفكت فيها الدماء، وانتهكت فيها الحرمات، وقاسى المسلمون من آثارها المدمرة منذ بدأت إلى الآن، آلامًا عظيمة، ومحنًا كبيرة.

وجديدة؛ لأن بعض الجماعات الإسلامية في الوقت الحاضر تقول بتكفير الحكام المسلمين والمجتمعات ا لإسلامية، وتدعو للخروج عليهم.

وهذه الجـــماعات بهذا المسلك تلتقي مع الخوارج في تكفير أصحاب الكبائر، والدعوة إلى الخروج على ولاة الأمر، وإثارة الفتن في صفوف المسلمين.

ومن أسباب ضلال أصحاب هذه الأقوال، فهمُهم الخاطئ لقول الله تبارك وتعالى:

{ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ } [1] (المائدة الآية ٤٤).

فقد فسَّروا الكفر هنا بالخروج من الدين، وأنه لا فرق بين من وقـــع فيه، وبين أصحاب الملل الأخرى الخارجة عن ملة الإسلام، ولم يرجعوا إلى فهم صحابة رسول الله ﷺ وأقوال الأئمة المعتبرين في هذا المجال، ولا إلى معنى لفظ الكفر في اللغة العربية.

وهذا مما يؤكد على ضرورة أن يكون الدعاة على علم بكتاب الله الكريم، وسنة نبيه ﷺ وأقوال السلف الـــصالح في ذلك، ومدلولات اللغة العربية في نصوص الكتاب والسنة.

---

(١) سورة المائدة آية: ٤٤.

إن لفـــظ الكفر في هذه الآية، لا يدل على معنى واحد فقط، وهو الخروج عن الدين، شأنه شأن الظلم والفسق في الآيتين الكريمتين، وهما قول الله تعالى: { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ } [1].

(المائدة الآية ٤٥).

{ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ } [2].

(المائدة الآية ٤٧).

فالوصف بالظلم، أو الفسق لا يعني خروج المتصف به عن الإسلام، فكذلك وَصْفُ من وصف بالكفر لا يعني خروجه عن الدين.

وقد بيَّن علماء السلف- رحمهم الله - هذا الموضوع أحسن بيان، إذ قسَّموا الكفر إلى كفر عملي، وكفر اعتقادي.

وقد يراد بهذه الآية الكريمة الكفر العملي، الذي لا يُخرج من الدين بالكلية، ولكنه يدل على المخالفة في هذه الأعمال.

وقد قال ترجمان الأمة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآية: (ليس الكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس كفرًا ينقل عن الملة، هو كفر دون كفر).

وهذا التفسير هو الذي ينسجم مع النصوص الأخرى، التي وردت فيها كلمة الكفر، وهي لا تعني الخروج من الدين، كما في الحديث عن رسول الله ﷺ { سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر } [3] .(متفق عليه). فالكفر هنا هو المعصية، والخروج عن الطاعة، وليس الخروج من الملة.

---

(١) سورة المائدة آية: ٤٥.

(٢) سورة المائدة آية: ٤٧.

(٣) البخاري الإيمان (٤٨)، مسلم الإيمان (٦٤)، الترمذي البر والصلة (١٩٨٣)، النسائي تحريم الدم (٤١٠٨)، ابن ماجه المقدمة (٦٩)، أحمد (١/٣٨٥).

يؤكد ذلك وصف الله تعالى الطائفتين المتقاتلتين بالإيمان في قوله سبحانه: { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ } [1] . (الحجرات الآية ٩).

فوصف الله سبحانه وتعالى الطائفة الباغية بكونها من المؤمنين، وإن كانت تقاتل الطائفة التي على الحق.

ومثل ذلك ما ورد عنه ﷺ { اثنتان في الناس هما بهم كـــفر، الطعن في النسب، والنياحة على الميت } [2] . (رواه مسلم).

وقوله ﷺ { لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكـــم رقاب بعض } [3] . (متفق عليه).

فجماعات التكفير التي تطلق الكفر على الحكـــام، أو على المجتمعات، دونما تفصيل ومعرفة للأحوال والواقع، تتابع ما قالته وفعلته الخـــوارج منذ القدم، في مرتكبي الكبائر وتكفيرهم بذلك.

وقد استغل هذه الأقوال الخاطئة أصحاب الأهواء والمصالـــح، من أجل تنفير المسلمين من حكامهم، ودعوتهم للخروج عليهم.

إن على الدعاة أن يكونوا على بصيرة فيما يدعون إليه، وما يتعرضون له، من تفسير لآيات كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ .

إن قـــضية التكفير خطيرة لا يجوز بـــحال التساهل فيها، أو القول فيها بغير علم وبصيرة.

---

(١) سورة الحجرات آية: ٩.

(٢) مسلم الإيمان (٦٧)، الترمذي الجنائز (١٠٠١)، أحمد (٤٩٦/٢).

(٣) البخاري العلم (١٢١)، مسلم الإيمان (٦٥)،النسائي تحريم الدم (٤١٣١)، ابن ماجه الفتن (٣٩٤٢)، أحمد (٣٥٨/٤)، الدارمي المناسك (١٩٢١).

فالكفر والفسق والظلم، منه ما يخرج من الملة، ومنه ما يكون كفرًا عمليًّا ومعصيةً لله ورسوله.

فإذا ثبت للإنسان أن أحدًا استحل ما حرم الله، واعتقد في نفسه ذلك، حكم عليه بالكفر المخرج من الملة.

وإذا لم يثبت ذلك، فإن إطلاق الكفر المخرج من الملة عليه بمجرد ارتكاب الكبيرة، أو فعل المعاصي، خلاف منهاج أهل السنة والجماعة، وصاحبه متوعد بقول رسول الله ﷺ { إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه } [1] . (متفق عليه).

وقد أنكر رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد رضي الله عنه قتله مشركًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، معتقدًا أنه قالها خوفًا من القتل، حيث قال له ﷺ { أفلا شققت عن قلبه } [2] . (رواه مسلم).

فالإنسان لا يعرف ما في قلوب عباد الله الذين يرتكبون المعاصي والكبائر التي هي دون الشرك والكفر، ما لم يفصحوا عما في قلوبهم من استحلال ما حرم الله.

إن المتأمل لما عليه أهل الضلال من المسلمين فرقًا وأشخاصًا- وإن أظهروا حماسًا للإسلام، واهتمامًا بأمور المسلمين - يدرك أن سبب ضلالهم، هو تنكبهم عن الطريق الصحيح، وفهمهم السقيم للإسلام، والعمل به، وبعدهم عن طريق رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

وهم حينما يثيرون عواطف كثير من الناس يؤلبونهم على حكامهم، وولاة أمرهم، دونما تفريق بين حاكم وحاكم ومجتمع وآخر، ودونما استناد صريح وواضح إلى كتاب الله

---

(١) البخاري الأدب (٥٧٥٣)، مسلم الإيمان (٦٠)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٧)،أبو داود السنة (٤٦٨٧)، أحمد (١٠٥/٢)، مالك الجامع (١٨٤٤).

(٢) البخاري الديات (٦٤٧٨)، مسلم الإيمان (٩٦)، أبو داود الجهاد (٢٦٤٣)، أحمد (٢٠٧/٥).

وسنة رسوله ﷺ يخالفون طريق رسول الله ﷺ في دعوته، فقد مكث ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى توحيد الله، والدخول في دينه، وإفراده بالعبادة، ويعلِّم أحكام الدين، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والصبر على ذلك.

وهذا هو الطريق الصحيح للدعوة إلى الله سبحانه.

إننا نجد كثيرًا ممن يكفِّرون الحكام، ويدعون إلى الخروج عليهم، وتأليب الناس عليهم، يقعون في أخطاء شنيعة في حياتهم الخاصة، وتعاملهم مع الناس، وفهمهم لأحكام دينهم، بل قد يتساهلون في أمور لها مساس بالعقيدة، وإفراد الله سبحانه بالعبادة، فيدعون مع الله غيره، ويبنون القباب والمساجد على القبور، ويفعلون ما يُنكر، من تمســـح بها، وطواف حولها، وتقديم النذور والقربات لها، مما قد يصل إلى الإشراك بالله، عياذًا بالله من ذلك. وخلاصة القول فيما يتعلق بفتنة التكفير التي وقعت فيها بعض الجماعات والطوائف في الوقت الحاضر، امتدادًا لما كان عليه الخوارج منذ القدم: أنه ينبغي أن يحذر كل أحد من الدعاة الوقوع فيها، وأن يحرص كل داعية على معرفة طريقة السلف الصالح، والضوابط التي يجب أن تراعى عند إطلاق كلمة الكفر على أحد من الناس.

ومن أهمها: عدم تكفير المسلم بمجرد ارتكاب الكبائر والمعاصي، فلا يحكم بردته حتى يظهر منه ما يناقض الشهادتين، وأنه تجب إقامة الحجة على المسلم إذا ظهر منه ما يوجب الحكم بردته، وأن علامة إسلام المرء الكافر، نطقه بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقراره بمقتضاهما.

وأن يفرَّق بين النوع والشخص، فيقال: من قال كذا فهو كافر، يُحكم على النوع والعمل، دون الشخص.

أما الشخص المعيَّن، فيجب التثبت والاحتياط في وصفه بذلك.

ومما ينبغي الانتباه إليه في هذا المقام، أن أحكام الناس تجرى على ما يظهر منهم، أما سرائرهم فالله يتولاها.

قال عمر بن الخطاب ﷺ (إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا أمَّنَّاه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نؤمنه و لم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة).

وليس معنى هذا أنه يُحكم بكفره، ما لم يرتكب مكفرًا عليه من الله برهان.

وهكذا كان طريق السلف الصالح، يحكمون على الظاهر، والله يتولى السرائر.

يحتاطون في أمر التكفير أشد الاحتياط، يجمعون النصوص بعضها إلى البعض، ويفسرون مدلولاتها، دونما تطرف أو غلو أو شطط.

إنهم يحكمون بالكفر والردة على من جحد توحيد الله سبحانه وتعالى، في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، أو استحل ما أجمع المسلمون على تحريمه، أو جحد فريضة ثبتت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونحو ذلك مما هو مقرر في مباحثه.

وجوب التزام الدعاة منهاج الوسطية في الدعوة

إن منهاج الوسطية، هو أعدل المناهج في نشر دعوة الإسلام، والحفاظ على تماسك المجتمع المسلـــم، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

وفي السنة النبوية، بيان للكثير من أحكام الدعوة، فقد بينت لنا آداب الدعوة، وأخلاق الدعاة والمصلحين.

فالداعية لا ينال الأجر إلا من الله ﷻ ولا يطلبه من غيره، وهو يقصد نفع المدعوين بتعريفهم بالدين، وتنمية معارفهم، وإرشادهم لنفع أنفسهم في دينهم ودنياهم، ولا يسعى الداعي إلى الله إلى نفع نفسه خاصة، أو أن يجمع الناس حوله، أو حول شخص آخر غير رسول الله ﷺ أو يتقوى بأحد، وإنما يجمع الناس على الهدى، لمصلحتهم هم ونفعهم هم، وأجره على الله وحده سبحانه، كما قالت الأنبياء والرسل لقومهم.

وفي العصر الذي نعيش فيه، تبدو حاجة المجتمع ماسة إلى جهد الدعاة في الدعوة إلى الله، حفاظًا على الدين، وعلى أحكام الشريعة والأخلاق الإسلامية التي يتعامل الناس بها في المجتمع.

ومـــع هذه الحـــاجة كـــثرت وسائل الإعلام بالدعوة، وزادت منابرها، وعلا صوتها، وبرزت مشكلات تحتاج للمزيد من العناية والمراجعة، من العلماء والدعاة.

ومن أهم المشكلات التي تواجه الدعاة في هذا العـــصر، مشكلة الغلو في الدين والتطرف والانحراف عن منهاج الوسطية الذي تحدثنا عنه سابقًا.

إن بـــعضًا من الشباب، لا سيما من تقل معرفتهم بالأحكام الشرعية، تدفعهم حماستهم ورغبتهم في خدمة الإسلام، إلى الانضمام إلى أية جماعة تعلن على الناس أنها تقوم بواجب الدعوة إلى الله، وتتعاون في سبيل ذلك مع من ينضم إليها.

يُقبل هؤلاء الشباب أحيانًا على هذه الجماعات، دون أن يتبينوا حقيقة أهدافها، ودون أن يكون لديهم معرفة كاملة بصلاح من يوجهون أمورها وعدالتهم، كذلك دون أن يتحققوا من أسلوبها في تبليغ كلمة، الله إلى الناس.

وقد دلت المشاهدة والتجارب في العديد من البلاد الإسلامية على وجود أهداف خفية وراء ممارسة بعض المناشط الدعوية.

قد تكون هذه الأهداف سياسية أو مذهبية منحرفة، وقد يكون فيها خروج على المسلك الصحيح الذي يجب أن يسلكه المسلم تجاه مجتمعه الذي يعيش فيه، وأولي الأمر الذين ينهضون بمصالحه، وغير ذلك.

فالشباب، مطالب بأن يتحرى الأمور قبل أن يبذل من إخلاصه وجهده وماله في مكان، أو تجمع، أو جماعة لم يتحقق من عدالة من يتولون أمورها، ويتبين اتفاق أسلوبها الدعوي مع منهاج الرسول ﷺ وأن العلم طريقها، والعلماء الصادقين هم القائمون بها على بصيرة: { قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ } [1] . (يوسف الآية ١٠٨).

ومن أخطاء بعض الدعاة، تنكب المنهاج الأوسط في الدعوة، فيعدل عن الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، إلى إيذاء بحض المدعوين بالقول أو الفعل، ظنًّا منه أن ذلك أسرع وأنجح في البلاغ، وأدعى للاتباع، وينسى هؤلاء أن الدعوة في الأعم الأغلب، لا توجه إلا للمخطئ والعاصي والجاهل، وأن هؤلاء أحوج ما يكونون إلى الكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، والبيان الشافي من الداعي.

وهكذا كانت سنة النبي ﷺ وطريقة صحابته الكرام- رضوان الله عليهم- ومن تبعهم بإحسان، والمصلحين من الدعاة.

(١) سورة يوسف آية: ١٠٨.

لا شيء أضرَّ بالشباب من أن يحاول أحد أن يستخدمهم، بدل أن يخدمهم بتقديم ما ينفعهم، من علم وقدوة وتبصير بالأمور.

فقد يُستعمل حماس الشباب، وإخلاصه، وقدراته في الإساءة إلى الدعاة الذين يقومون بواجبهم العلمي والدعوي بأمانة وإخلاص، ووفق منهاج النبوة.

وقد يتصدى بعض الشباب بدافع من الحماس أو الغلو، لعلماء أفنوا عمرهم في تحصيل العلم الشرعي من مظانه الأصلية.

وهذا من العيوب التي شابت مسلك بعض الشباب في مجتمعات إسلامية عديدة، وفيه ما فيه من إساءة الظن بالعلماء، وترك التقدير والاحترام لهم.

هذا بعض مما يقع فيه بعض الشباب في بلاد إسلامية عديدة، مما يسيء إلى الدعوة والدعاة أمام غير المسلمين، بل وفي نظر كثير من المسلمين.

والسبب في ذلك ترك المنهاج الوسط الذي تضمَّن الأقوم والأعدل في كل عمل.

إن على العلماء والدعاة إلى الله، أن يخاطبوا الناس بمنهاج الوسطية في كافة أمور الدين علمًا أو إفتاء أو دعوة؟ لأن الدين في أصله يرفض الغلو، والتطرف في كل جوانبه.

إن منهج الإسلام وسط بين من يحبون الدنيا ويذرون الآخرة، وبين من يعتزلون الدنيا كلها: { وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ } [1] . (القصص الآية ٧٧).

وهو وسط بين الإفراط في حكم الشرع، أو التفريط فيه، يقول ﷺ { لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم } [2] (رواه أبو داود).

(١) سورة القصص آية: ٧٧.

(٢) أبو داود الأدب (٤٩٠٤).

الدولة السعودية والدعوة

إن التاريخ الإنساني بعد ظهور الإسلام لم يعرف في بلاد المسلمين (عصور الظلام) كما عرفها الأوروبيون في القرون الوسطى من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وهي التي يعرفها الأوروبيون بأنها عصور التخلف الديني والحضاري.

إن التقسيم السائد في التاريخ غير الإسلامي، يجعل من القرون الستة السابقة مرحلةً تاريخيةً وسطًا بين التاريخ القديم والنهضة الحديثة في العالم غير الإسلامي، فلم يبدأ التجديد إلا بعد انقضاء هذه القرون، بما فيها من جهالة دينية وتخلف حضاري، وحروب، ومعارك، واستعباد للناس.

لكن هذه القرون في التاريخ الإسلامي، ابتداء من القرن الأول للهجرة النبوية الشريفة، إلى القرن السابع الهجري، كانت أزهى عصور التاريخ الإسلامي، وكانت دولة الإسلام في الجملة تتمتع بالقوة والنفوذ العالمي، لأن النظام الإسلامي في هذه الفترة، خَلَف النظام الروماني القديم، الذي انهار أمام الحضارة الإسلامية.

وكانت الدولة الإسلامية تتميز بمستوى حضاري عال، من أهم مكوناته انتشارُ العلوم الدينية والطبيعية، والنمو الثقافي، وازدهار التجارة، وقيام علاقات سياسية مهمة بين الدول الإسلامية وبلاد العالم.

ولا ينكر كثير من الغربيين أن الصلات بين الدول الإسلامية وبين كثير من دول الغرب، حتى مع قيام المنازعات والحروب في أوقات معينة، كان لها أثرها الكبير في البدايات الأولى للنهضة الأوروبية الحديثة.

لكن الدولة الإسلامية ضعفت بانهيار الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ على يد التتار، وما خلفوه من دمار، وساد التفرق والانقسام أجزاء كبيرة من الدولة الإسلامية الواسعة، وأصبحت الخلافة الإسلامية شكلا ورسمًا فحسب، دون أن يكون لها أثر حقيقي في وحدة الأمة، أو نشر الدعوة إلى الله.

وابتداء من القرن التاسع الهجري، بدأ العالم الإسلامي في المشرق ثم في المغرب العربي يقع تحت سلطان العثمانيين، وظل كذلك حتى آل الأمر إلى الضعف أيضًا، بسبب الاستبداد من السلاطين، والانصراف عن اتخاذ أسباب القوة وحماية الأمة الإسلامية، وانتهى أمر الدولة العثمانية سنة ١٣٤٢ هـ.

وفي فترة ضعف العثمانيين، وتخلف المسلمين حضاريًّا، وانصرافهم عن كثير من أحكام الشرع، وقعت معظم بلاد العالم الإسلامي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين في قبضة الاستعمار الغربي.

وكان من أثره وتأثيره خلال عشرات السنين في المشرق والمغرب العربي، أن زاد انفصال المجتمعات الإسلامية عن أصولها العقدية والتشريعية والاجتماعية، بسبب هجمة التغريب الثقافي والاجتماعي، التي كانت شديدة الوطأة في بعض البلاد.

لقد حمى الله المملكة العربية السعودية من الوقوع في قبضة الاستعمار الغربي، أو التأثر بحركة التغريب الثقافي والاجتماعي، الذي ساد المنطقة العربية.

وكان ذلك راجعًا في المقام الأول إلى فضل الله سبحانه وتعالى على بلاد الحرمين الشريفين، ثم إلى جهود الدولة السعودية وقادتها الأشاوس، بدءًا من الإمام المجاهد محمد بن سعود - رحمه الله- الذي ناصر دعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله-.

تلك الدعوة التي ترمي إلى إنقاذ المسلمين من الضلال، وتخليص عقائدهم من الشوائب، وسلوكهم من الانحراف، حتى يعبدوا الله حق العبادة، مخلصين له الدين، ويسلموا قيادهم له، ويرجعوا إلى كتابه الكريم، وسنة نبيه الأمين ﷺ وما كان عليه سلفهم الصالح.

فأحيت تلك الدولة والدعوة معًا الإيمان الحق في نفوس المسلمين، وردتهم إلى دين الله وتطبيق شريعته.

ولقد تُوجت تلك الجـــهود بما قام به الإمام المجاهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود - رحمه الله- في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، من توحيد للمملكة العربية السعودية، رسخ قواعدها على عقيدة الإسلام وشريعته، وحقق لها الأمن على دينها وعروبتها وتراثها وثقافتها، وبدأت المملكة تقدمها ونهضتها؛ لكي تحتل مكانتها في العالم الإسلامي، وعلى المستوى الدولي أيضًا.

وعلى هذا الأساس المتين من توحيد المملكة على يد الملك عبد العزيز - رحمه الله- ومن ترسيخ قواعدها بحفظ الدين، ونشر الأمن في ربوعها، وإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعها، انفتح أمام أبناء المملكة الإسهام في خدمة الدين والوطن على مصراعيه بالدعوة إلى الله والعمل الصالح.

ويسَّر قادة المملكة كـــل العقبات في طريق الدعوة إلى الله، فـــي عهد الملك عبد العزيز - رحمه الله-، ومن خَلَفه من أبنائه الكرام، حتى العهد الحاضر، عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، وسمو ولي عهده الأمين، حفظهما الله ورعاهما، ونصر بهما دينه، وأعلى بهما كلمته، حيث أقيمت المؤسسات التعليمية والدعوية والتثقيفية لخدمة أبناء المملكة، وإعدادهم إعدادًا يمكِّنهم من خدمة دينهم ودولتهم ووطنهم، والإسهام في ذلك بما يجعل أداء هذه الدولة المباركة لرسالتها الإسلامية في الداخل والخارج، أداء قويًّا مستمرًّا، وفق الأسس التي قامت عليها.

وهذا يؤكد علينا، وفي مختلف المناسبات، أن نبين ما ينبغي أن يكون عليه شبابنا، من صدق في الانتماء للدين والوطن، وطاعة لولاة الأمر، وقوة فـــيما هـــم عليه من الحق، وسلامة فيما يتخذونه من وسائل في التثقيف والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مستمدين ذلك كله من كتاب الله الكريم، وسنة المصطفى ﷺ وما سار عليه سلفنا الصالح، وما أحياه وجدده علماء الدعوة وأئمتها في هذه البلاد، بـــدءًا من الإمام المجـــدد الشيـــخ محـــمد بن عبد الوهاب - رحمه الله- وتلامذته، ومن تبعهم على ذات المنهاج والطريق.

إن من فضل الله على هذه المملكة، أن أمور الدعوة فيها من أول اهتمامات أولي الأمر، ومن أعظم واجباتهم، وقد قامت على أسس مستمدة من الكتاب والسنة، ووضع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الصورة التي تحقق الهدف منه.

والباب مفتوح أمام أبنائها للإسهام في خدمة دينهم ووطنهم بالعلم والعمل في جميع المجالات، دون غلو أو تطرف، أو خروج على منهاج الوسطية الأقوم والأعدل، الذي جعله الله حقيقة هذه الأمة، التي تمثل المملكة العربية السعودية به اليوم، الواقع الحي لها، حيث تطبق الشريعة، وتلتزم الفضيلة، وتدعو إلى الخير والبر والإحسان، دونما شطط ولا غلو ولا تطرف، ولا انتماءات حزبية أو سياسية.

بل كيان الدولة والمجتمع، كيان قائم للإسلام، وعلى الإسلام، ومن أجل رسالة الإسلام.

والخشية أن يتأثر أحد من شبابنا في المملكة بما حدث في مجتمعات أخرى، من انتماءات مذهبية أو سياسية، كانت مُفرّقة للصف ومُضعفة للجماعة.

وبلادنا لا تقاس على غيرها من الدول والمجتمعات، فدستورها الكتاب والسنة، ونظام الحكم فيها قام عليها، التزم بهما، وطبق أحكامهما، فلا يصح فيها وجود التجمعات أو التكتلات، معلَنة أو خفية، مما يتعارض مع ما قامت عليه الدولة، وما تدعو إليه وتعمله من خلال مؤسساتها القائمة.

ولا يصح أن يسلك أحد من شبابها مسلكًا، يكون له أثر قريب أو بعيد في تفريق الكلمة، أو إضعاف كيان الدولة أو الأمة، أو يتخذ وسيلة من الوسائل التي لا تتلاءم مع الطريق الصحيح للدعوة، والأسلوب الأنفع فيها، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة ولي الأمر، والاقتداء بالعلماء الثقات المعتبرين، واحترامهم، والتتلمذ عليهم، والنصح لله ولأئمة المسلمين وعامتهم، نصحًا يجلب المصالح ويرعاها، ويدرأ المفاسد ويتجنبها.

نسأل الله أن يهدينا جميعًا إلى التي هي أقوم، وأن يوفق ولاة أمرنا إلى ما يحبه ويرضاه، وأن ينصر بهم دينه، ويعلي بهم كلمته، وأن يوفق شبابنا إلى الطريق المستقيم، طاعة لله، ومتابعة لرسوله، وابتعادًا عن مواطن الزلل والانحراف، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

عبد الله بن عبد المحسن التركي

وزير الشؤون الإِسلامية والأوقاف والدعوة والإِرشاد

فهرس الآيات

إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة ٤٠
آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا ٣٢
إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين ..... ٧، ٩
إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري ٢٥
إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ٥٠
إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ٣
إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ٣٩
ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ٤١
بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ٧
تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا ..... ٧، ٩
ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ٣٥
حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ١٣
ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ٦
سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية ٤٢
شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ٣٤
فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا ٣٩
فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ٢٩
فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ٤١
فوسطن به جمعا ١٣
قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ١٣
قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله ٤٦
قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا ٤٤
قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ٣٦
قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا ٢٦
قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله ٥٧

قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات ٣٨
كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم..... ٧
كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ٤٢
كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ٤٢
كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا ١١
كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون ..... ١٨، ١٩، ٤٢
لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن ٤٠
لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ١٣
لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ٤٠
لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك ٤٢
لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول ٢١
لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين..... ٣٤
للسائل والمحروم ٣٢
لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير..... ٣٢
وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ ٣٩
وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما..... ٥٢
وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ٨
وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن ..... ٢٢، ٥٨
واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ ٥
والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا وكان بين ذلك قواما ٢٣
والذين في أموالهم حق معلوم..... ٣٢
وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من ٣٤
وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ٣٢
وفي أنفسكم أفلا تبصرون ٢٥
وفي الأرض آيات للموقنين ٢٥
وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوني ..... ٧، ٩
وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ٥١

وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم . ٨، ١٤، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٠

ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ٤١

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما ٢٣

ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ٣٥

ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ١١

ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ٢٦

ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا ٧

ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من ٤٠

ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ٩

ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى..... ٤٠

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ٤٠

وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله ٥١

وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين ٣٢

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ..... ٣٤، ٣٨

وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٣٨

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ٢

وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما ١٠

ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ٤٥

ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ٤٥

ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ٤٢

يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه ٢٣

فهرس الأحاديث

إذا قال الرجل لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، ٥٣
أفلا شققت عن قلبه ٥٣
إن الدين يسر ٧٥ ولن يشاد الديـــن أحد إلا غـــلبه، فسددوا وقاربوا ٣٥
إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا ٣٤
إن الله يرضى لكـــم ثلاثا، ويكره لكـــم ثلاثا فيرضى لكـــم أن تعبدوه ولا ٥
أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء، ما صدقت، وإن من الأنبياء ١٨
أنتم قلتم كـــذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أنا ٢٢
إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، ٣٥
إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ١٨
أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن ولي عليكم عبد حبشي، فإنه من ٤٥
اثنتان في الناس هما بهم كـــفر، الطعن في النسب، والنياحة على الميت ٥٢
افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى ٤٤
ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ٦
خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام ١٨
سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر ٥١
طوبى لمن عمل بعلمه ٢٩
كنت أصلي مع النبي الصلوات، فكانت صلاته قصدا، وخطبته قصدا ٣٦
لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكـــم رقاب بعض ٥٢
لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن ١٢٧ قوما شددوا على أنفسهم، فشدد ٥٨
لا تطروني كـــما أطرت النـــصارى ابـــن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله ٢١
نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ١٨
والوسط العدل ١٤
يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه، فيقال ٢٠
يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا ٣٥

الفهرس

المقدمة..... ٢
الأمة الوسط في القرآن الكريم ٥
الأمة في القرآن الكريم..... ٦
معاني الأمة في القرآن الكريم ٩
المعنى الغالب لكـــلمة أمة في القرآن الكريم ١٠
معاني الأمة في اللغة ١١
الوسط في القرآن الكريم..... ١٣
المفهوم الفلسفي للوسطية..... ١٦
خيرية هذه الأمة ١٨
الوسطية في المنهاج الإسلامي إجمالا..... ٢٠
الوسطية في العقيدة ٢٤
توسط أهل السنة والجماعة بين الفرق الإسلامية..... ٢٨
الوسطية في التشريع الإسلامي..... ٣١
الوسطية في الدعوة..... ٣٨
المنهاج النبوي في الدعوة إلى الله..... ٤٤
الانحراف عن منهاج الواسطية..... ٤٧
فتنة التكفير ٥٠
وجوب التزام الدعاة منهاج الوسطية في الدعوة ٥٦

الدولة السعودية والدعوة ٥٩

فهرس الآيات ٦٤

فهرس الأحاديث ٦٧

الفهرس..... ٦٨